

صورة الأنا والآخر في نصية الالتزام الحدائي

The Image of the Ego and the Other in the text of the Modern Commitment

د. كريمة حجازي

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة عباس لغرور - خنشلة (الجزائر)

karimahedj@gmail.com

تاريخ القبول: 2019/12/08

تاريخ الإيداع: 2019/10/08

ملخص:

شهدت الساحة العربية حديثا متغيرات محيطية عديدة؛ أثرت على الذات العقلية المعبرة عنها، انطلاقا من العامل السياسي الخارجي، وصولا إلى الواقع الاجتماعي الداخلي المكوّن لمحيط الأنا العربية وتوجهاتها الفكرية عامة والأدبية بصفة خاصة، هذه الأخيرة التي تُرجمت في قالب الانتقال من حال الانطواء الرومانسي المنهمك في سرد الذات واختلاجاتها وتصرفاتها، إلى الانشغال بقضايا الأنا الأخرى الصارخة في وجه الظلم والجور والاستبداد والتعسفية والمعاناة بمختلف تفاصيلها، والخوض والتصرف فيها بكل حرية وطلاقة فنية وإبداعية، توأكب روح الحدائثة و العصرية الأدبية الجمالية، وتحت لواء ومُسمى " أدبيات الفن الملتمزم ". وهو ما يروم هذا البحث مقارنته، من خلال التركيز على توجهات "نصية الالتزام" وأبعادها الفنية والدلالية الخادمة للتراث العربي الأصيل والداعمة للفكر الحدائي الهادف، من خلال اعتبار الأدب رسالة تسعى لخدمة المجتمع وترسيم هويته.

الكلمات المفتاحية: الأنا؛ الآخر؛ الالتزام؛ النص الحدائي؛ الهوية.

Abstract:

The Arab arena has recently witnessed many peripheral variables, which have affected the mental self expressed, from the external political factor, to the internal social reality that constitutes the frame of the Arab ego and its intellectual orientations in general and literary in particular, the latter which have been translated in the form of the transition from the case of romantic introversion. Self-narration, convulsions and actions, to engage

with other ego issues that are blatant in the face of injustice, tyranny, absolutism and suffering in all its details, and to engage in and act freely and artistic and creative fluency, keep pace with the spirit of modernity and modern literary aesthetic, under the title "Literatures of committed art." ،

This research seeks to prove this idea by focusing on the directions of the "text of commitment" and its technical and semantic dimensions that serve the authentic Arab heritage and supportive of modernist thought, by considering literature as a message that seeks to serve the community and define its identity.

key words: ego; commitment; modernism; identity.

تقديم:

شهدت الساحة العربية حديثاً متغيرات محيطية عديدة؛ أثرت على الذات العقلية المعبرة عنها، انطلاقاً من العامل السياسي الخارجي، وصولاً إلى الواقع الاجتماعي الداخلي المكوّن لمحيط الأنا العربية وتوجهاتها الفكرية عامة والأدبية بصفة خاصة، هذه الأخيرة التي تُرجمت في قالب الانتقال من حال الانطواء الرومانسي المهتمك في سرد الذات واختلاجاتها وتصرفاتها، إلى الانشغال بقضايا الأنا الأخرى الصارخة في وجه الظلم والجور والاستبداد والتعسفية والمعاناة بمختلف تفاصيلها، والخوض والتصرف فيها بكل حرية وطلاقة فنية وإبداعية، توأمت روح الحدائث والعصرنة الأدبية الجمالية، وتحت لواء ومُسمى "أدبيات الفن الملتزم".

وعليه فليس في الالتزام ما يناقض فكرة الإبداع والتفرد، أو يناقض قيم الجمال والعناصر الشعرية الخالصة، وإنما هو وعي واقتناع برسالة الشعر ومسؤوليته في تطوير الحياة أو تغييرها.

أولاً. الالتزام (مصطلح ودلالة)

1- الالتزام لغة:

يأتي الالتزام في اللغة بمعنى الملازمة للصيقة والمصاحبة التي ينتفي معها الفراق، فقد جاء في لسان العرب: "لَزِمَ الشَّيْءُ يَلْزِمُهُ، لَزْمًا وَلُزُومًا وَلِإِزْمَةً، وَمُلَازِمَةً وَلِزَامًا وَالزَّمَهُ إِيَّاهُ، فَالزَّمَهُ، وَرَجُلٌ لَزِمَهُ، يَلْتَزِمُ الشَّيْءَ فَلَا يُفَارِقُهُ، وَاللِّتِمَامُ: الِاعْتِنَاقُ"¹، وجاء في القاموس المحيط للفيروز أبادي: "لَزِمَهُ، كَسَمِعَ، لَزِمًا وَلُزُومًا، وَلِزَامًا وَلِزَامَةً وَلِزْمَةً وَلُزْمَانًا بضمهم، ولِإِزْمَةً مُلَازِمَةً، وَلِزَامًا وَالزَّمَهُ إِيَّاهُ فَلتَزَمَهُ وَهُوَ لَزِمَهُ

كهمزة، أي إذا لزم شيئاً لا يفارقه، والتزمه اعتنقه². وكلاهما يحيلان على المصاحبة والارتباط الوثيق الذي لا يكون معه فصل ولا قطع.

وعليه فالالتزام لفظة جاءت في سياق الاعتناق والملازمة القصديّة، حسية كانت أو معنوية؛ كما ورد في أساس البلاغة: "لزم المال لزوماً، والتزمته إياه، ولزم غريمه لزماً، ولا تنزع من لزمه حتى تنتزع الحق منه، وفلان ملزومٌ، وأخذ يمطئني فلانته حتى استوفيت حقي منه، وألّزمت خصمي إذا حججته (فسوف يكون لزاماً)، عذاباً لازماً، والتزم الأمر، ومن المجاز التزمه: عانقه"³.

وكذلك الأمر من الناحية الشرعية ورد مصطلح الالتزام في عدة مواضع، دالة على الوجوب والخضوع والانقياد لشأن الله ومقتضاه: (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)*، ومعناه: "أي عذاباً يلزمكم، لزوم الغريم لغريمه وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين"⁴. يقول الله تعالى: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)**، وألزمناه في الآية فيه: "إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي ما عمل من خير وشريعته الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب غيره بعمله"⁵؛ ذلك أن دلالة الالتزام جاءت في سياق الإلزام بأخذ الجزاء من جنس العمل، خيراً كان أو شراً.

والحقيقة أن هذا المعنى اللغوي، غير بعيد عن المعنى الاصطلاحي بل يكاد يتطابق معه فدلالة الالتزام إذن لم تخرج في وضعها اللغوي، عن حقل اعتناق الأمر وعدم مفارقتها.

2- الالتزام اصطلاحاً:

يرى الكثير من الدارسين أن الالتزام هو ايثار المصلحة العامة أو الخاصة والوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، ومحاولة معالجتها. والالتزام هو الانضواء في إطار الصراع الأيديولوجي لأن: "هذا المذهب يُصادم ويناقض فكرة "الفن للفن" التي تنفي أية غاية توخاها أهل القلم، وقد كان الالتزام معروفاً في الأدب العربي القديم، كموقف فكري يقفه الشعراء إزاء المجتمع والوجود في تأمل نماذجهم واكتساح معانئها، وقد اتسعت دائرة الالتزام في العصر الحديث، وأمسى نهجا عاماً عند جُلّ الأديباء"⁶.

والالتزام في الاصطلاح الأدبي: "هو اعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عن الإنسان لا مجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال"⁷. وهذا ما يعني تبني الأديب أو الشاعر موقفاً عقدياً أو فكرياً يتجشم تبعاته؛ بحيث يشارك الناس قضاياهم

وتطلعاتهم، وحتى رؤاهم السياسية والثقافية والاجتماعية، ذلك أن: "التطور الفكري الحديث، قد أضاف عليها معنى اصطلاحيا جديدا، وهي أكثر ما تطلق اليوم في معرض الكلام على الفكر والأدب والفن، حيث نجد في مضامينها مشاركات واعية في القضايا الإنسانية الكبرى السياسية والاجتماعية والفكرية، وليس مقتصرًا على المشاركة في هذه القضايا، وإنما يقوم الالتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكر أو الأديب أو الفنان فيما، وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحًا وإخلاصًا وصدقًا واستعدادًا من المفكر الملتزم؛ لأنه يحافظ على التزامه دائمًا، ويتحمل كامل التبعية التي تترتب على هذا الالتزام، ومن هنا كان الالتزام مرتبطًا بالعقيدة، منبثقًا من شدة الإدمان بها صادرا في جميع أشكاله وأحواله عن إيديولوجيا معينة يدين بها المفكر الملتزم"⁸.

وعليه "فالالتزام الأديب معناها: أن أدبه ينبع من الحرية الملتزمة بواقع الحياة التي يعيشها الشاعر في إطار تجاربه الشعرية التي تحررت من الجموح والشرود بالتوازن بين العقل والخيال"⁹.

ولا ينبغي للأديب أو الشاعر الانغلاق داخل ذاتيته، دون الولوع في حميمية الفعل واعتناق واقعه وأمته، بل لابد له من الانصهار والتواشج بين الأنا الفردية والذات الاجتماعية، فالأدب إن لم يكن ملتزما بمعالجة مسألة ما فلا ائتمان به ولا فائدة منه؛ لأنه لا يهدي إلى الصدق الواقعي، بل إنه ينكب في إطار "أنا" العاطفة في قبجها وجمالها وعدم مبالاها: "فمهمة الأدب نحتُ الجمال ورسم الصور والأخيلة الباهرة من أجل بعث المتعة والسرور في النفس، إنَّه هدف في حد ذاته ولا يُبحث له بالتالي عن أي هدف خُلقي أو غير خُلقي"¹⁰.

وهذا ما يتنافى مع الواقعية الحديثة التي وقفت في وجه هذه التيارات الفنية، قصد إدراك الأمر وإيجاد الحلول للأوضاع المتأزمة المحيطة بالفرد العربي: "فيحدِّد الكاتب موقفه من مسائل عصره تحديدا تاما، إذ لا قيمة مؤثرة للمبادئ التجريدية في ذاتها، دون ربطها بملاساتها، ودون تخصيصها بموقف معين، لأن تلك المبادئ في ذاتها هزيلة عندهم، ووجود الكاتب لا يتحقق بمجرد الكشف عن الموقف، ولكن لابد للكاتب من الالتزام في صراع يستجيب فيه لما يوجهه إليه عصره من مسائل هي مثار القلق ومبعث الأمل والألم فيه.

والوعي الحسي للكاتب هو اشتراكه في مسائل قومه ومسائل العالم من حوله، كي يصور العالم الذي يحيا فيه قاصداً إلى تطويره وخلق خلقاً جديداً¹¹.

إنَّ الالتزام يعني مسaire الأديب للوضع السائد في مجتمعه "وتأييد نظام مقرر على قومه فكذلك كانت الجماهرة الغالبة من الأدباء في كل عصر وكل مجتمع تساير الأوضاع السائدة وتتولى مهمة التعبئة الوجدانية"¹²؛ لاعتقاد المبدع بأنَّ له دوراً مهماً اتجاه مجتمعه بإدراكه للحدود وكشفه للطبيعة ورسمه للغاية المتوخاة، والإشارة إلى مدى تحقيقها، وفق مجموع المبادئ الشاغلة لمحيط هذا الفن الملتزم.

وهذا الدور الذي ينهض به المبدع يُشكل نوعاً من الانخراط الوجداني ما بين الذات القائلة المعبرة، والآخر الصامت المتصنت لقضاياها الاجتماعية والسياسية والإنسانية والدينية، ذلك ما يُؤلِّد أشكالاً من الروابط الشعورية المنفعلة في إطار فني نافع وهادف؛ فالقلم الملخص لواقعه ومجتمعه ووجب عليه أن ينكر عنه ذات صاحبه وأن ينصرف إلى قضايا مجتمعه الملمية بالمشكلات والحافل بالقلق وبذلك يكون حليفاً طبيعياً للمضطهدين والمهمشين، وهذا ما يشير إليه الدكتور عبد الرحمن باشا بقوله: "هو أن يلتزم الأديب في كل ما يصدر عنه من أدب فكري محدد من الأفكار، أو عقيدة من العقائد أو نظرية من النظريات أو فلسفة من الفلسفات، بحيث يكون أدبه نابعا مما اعتقده، ممثلاً لما اعتنقه غير حائد عنه، أو خارج عليه"¹³.

ويحدد محمود تيمور طبيعة العمل الفني بقوله: "وإننا لننظم العمل الفني إذا زوينا عنه أعيننا لمجرد أنه يتناول مشكلة من مشكلات الحياة، أو يعالج قضية من قضايا المجتمع، كما يكره ذلك القائلون بأن الفن للفن، وإننا كذلك لننظم الفن إذا غالينا في تقدير العمل الأدبي لمجرد أنه يتناول تلك المشكلات ويعالج تلك القضايا كما يحب ذلك القائلون بأن الأدب للمجتمع وفي سبيل الحياة"¹⁴.

فالعمل الأدبي ليس كله صرامة وفلسفة كما أنَّه ليس كله ترويح وإمتاع، إنه مزيج من هذا وذاك؛ لأن كليهما من مقومات الحياة وضروريات الأحياء، كما نحن في حاجة إلى الحقائق الواقعة، كذلك نحن في حاجة إلى الأخيصة والرؤى.

وقد يرتبط الالتزام بالعقيدة وخاصة إذا انبثق من الإيمان الصادق، وعلى هذا الأساس يُعد الفكر الملتزم فكراً موضوعياً في حد ذاته يقوم على الاختيار لا التخيير، وعلى الحرية لا التقييد وعلى المطلق لا الإيجار، وعليه فإن: "الالتزام شيء والإلزام شيء، فالالتزام يعني حرية الاختيار، وهذا يقوم على المبادرة الإيجابية الحرة من ذات

صاحبه، مستجيباً لدوافع وجدانية نابغة من أعماق نفسه وقلبه، ولعل هذه الحرية هي التي تضيف على الالتزام معنى الشعور بالمسؤولية¹⁵.

فالالتزام يدخل في إطار الحرية المسؤولة التي تجعل الكرامة الإنسانية هدفها الأول وتستخلص من الرؤى والتجارب الواقعية الكثيرة مسارها الجديد ونظرتها المستقبلية الاستشرافية؛ التي لا تحدُّ من قيمة الإبداع أو تنقصه، بل إن صورة الالتزام تُضيف على العمل الفني نكهة هادفة، تزيد من جمالية المبنى وقدسية المعنى: "ليس في الالتزام ما يناقض فكرة الإبداع، أو يناقض قيم الجمال والعناصر الشعرية الخالصة"¹⁶.

فالملتزم يُصنّف ضمن إطار إنسان التاريخ والحضارة بمقوماتها؛ لأنّه يرسم الطريق للأجيال الحاضرة والقادمة بكتاباتِه النصية الهادفة، والمعالجة لقضايا مجتمعه، انطلاقاً من الماضي ومعطياته، وصولاً إلى الحاضر وبواعثه، متجاوزاً كل مقاصد الذات ومختلجاتها الشخصية من آلام وأفراح ومواقف وذكريات تصبُّ كلها في إطار "الترف الفكري" المناقض لروح المجتمع وأواصره.

ثانياً: الالتزام بين القديم والحديث:

من المعروف أن الأديب ليس بمعزل عن التناقضات الحياتية الغربية والمتداولة، بل هو يملك الإحساس المرهف اتجاهها، إذ هو أكبر متلق لها ومتأثر بها، فجُلُّ حياته لا تختلف عن هذا النشاط المدرك وغير المدرك.

وإذا قسنا ذلك بنظرة الأديب والشاعر، فإنَّ هذا الإحساس أكثر ترجمة وبروزاً من أي تداول نشاطي آخر، إذ هو الترجمان لمجموع هذه التجاوبات المعيشية المتعددة، بل ويكاد يتحول إلى مفسر لكل قيمها وضوابطها: "فكأنَّ تلك القضايا قد أصبحت فردية، كما أنها لم تفقد- بشكل أو بآخر- صيغتها الجماعية. وهذا ما يميّز الشاعر من رَجُل الشارع في فهمهما المتغاير اتجاه قضايا مجتمعه"¹⁷.

فالشاعر الجاهلي كان ملتزماً بالقيم والمبادئ التي آمن بها المجتمع؛ لأنه فُطر عليها وأضححت عنده طبعاً وسليقة وممارسة، في ظل الالتزامات التي تُرجمت في قالب الدين والأخلاق: "الدين دائماً وسيلة نظيفة لغاية نبيلة، والفن الصحيح، هو الآخر وسيلة نظيفة لغاية نبيلة لُحمتها الصدق والأصالة، وهكذا يلتقي الفن بالدين"¹⁸.

أُكيد أنّ هذا العربي القديم كان متحرراً من قيود الدين، غير أنه لم يكن حُرّاً الأخلاق التي جُبِل عليها. وهذا يعني أنّ الأدب، لا بُد له من هدف يدعو إليه، وغاية يسعى إلى

تحقيقها فيكون بذلك ملتزماً بعقائد المجتمع وسيادته، متصلاً اتصالاً وثيقاً بالحياة وأواصرها.

وتنحصر "المثالية الجاهلية التي يمكن اعتبارها نواة إيديولوجية في ثلاثة أمور هي: الولاء للقبيلة والفروسية والمروءة، بكل ما تنطوي عليه من مناقب خلقية، ومن هذه المثل ينطلق الشعر الجاهلي الملتزم. أمّا الولاء للقبيلة، فقد جعل الشعراء يلتزمون قضيتها في كل حين، والتزامهم -على بدائيته- شبيه من جهة بالالتزام الوجودي الذي يتحدث عنه سارتر من حيث أنهم مُبحرون على النحو الباسكالي الذي تمثل به فيلسوف الوجودية الفرنسية، ومعنى ذلك أن القبيلة هي قَدْرُ الشاعر الذي لا يستطيع أن ينفلت منه، وهي جوهر وجوده، وقوام حياته الفردية والاجتماعية"¹⁹. يقول عنتر بن شداد العبيسي:

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصباً شطري وأحي سائري بالْمُنْصَلِ
إن يُلْحَقُوا أَكْرُزُ وإن يُسْتَلْحَمُوا أشدُّ وإن يُلْفُوا بَضْنِكِ أَنْزَلِ²⁰

فهذه الأبيات تعكس خاصية الولاء والالتزام للقبيلة بتوظيفها ضمن الغرض الفخري المقدس آنذاك. وللقناد العرب رأي في هذه القضية، فيرجع ابن طباطبا الالتزام إلى مفهومية الصدق الأخلاقي: "إنَّ من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء، وفي صدر الإسلام، من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها، على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء، وافتخارا ووصفا وترغيبا وترهيبا"²¹.

وهذا ما يشير إليه الأمدي في وجوب الأخذ بالالتزام من باب الإجابة والصدق: "قد كان قوم من الرواة يقولون: أجود الشعر أكذبه، ولا والله ما أجوده إلا أصدقه"²². فالصدق هنا يأتي في إطار التفاعل الأخلاقي الفني الذي يصور الحقيقة وفق تجارب شخصية تحاول التوسط بين الذات والمحيط الاجتماعي.

يقول السيد قطب: "لن يكون للشاعر طابع خاص ولن يستطيع أن يصلنا بالكون الكبير إلا إذا كان صادقاً"²³.

ومن هنا وجب القول أن الالتزام في القديم كان أساسه التركيز على الجانب الفني والأخلاقي في إنتاج الصورة الأدبية الرسالية، فيخرج العمل في أروع صورته وأسمى معانيه، يثير المشاعر ويحرك الدوافع ويستثير الفن ويحفز المقوم.

أما من الناحية الحدائية فقد تحلى الالتزام برداء المجتمع وقضاياها ومشاكله ومشاغله من وطنية وقومية بل وحتى إنسانية، فالالتزام اليوم مطلب حضاري؛ لأنه يعني

تواصل الإنسان مع العصر وعيشه فيه، وهذا عصر الأفكار والإيديولوجيات والمذاهب الفلسفية والسياسية والاجتماعية، ولا يمكن أن يعيش الإنسان مُشاهداً ذلك كله من غير أن يكون له موقف خاص ووجهة معينة يحتذي بها.

والالتزام لا يتعارض مع الحرية، وبالتحديد الحرية الواعية المسؤولة، التي تحمل رسالة قيّمة هادفة، يقول توفيق الحكيم: "الالتزام المثمر للفنان - في رأيي- هو الذي ينبع من طبيعته، وهنا لا يتعارض مع مبدأ الحرية، بل ينبع الالتزام نفسه من الحرية ذاتها، لذلك لم أقل لأديب أو فنان: التزم، بل قلت وأقول: كن حراً"²⁴.

تردد فدوى طوقان وهي متسرّبة برداء الحرية، صارخة بملء فيها:

حريتي

حريتي

حريتي

صوتٌ أرَدُّهُ بملءِ فمِ الغَضَبِ

وأظَلُّ رِغْمَ القَيْدِ أَعْدُو خَلْفَهَا

وأظَلُّ رِغْمَ اللَّيْلِ أَقْفُو خَطْوَهَا

وأظَلُّ مَحْمُولًا عَلَى مَدِّ الغَضَبِ

وأنا أناضِلُ دَاعِيًا حُرِّيَّتِي

حريتي

حريتي

وَيُرَدِّدُ النَّهْرُ الْمُقَدَّسَ وَالْجُسُورُ

²⁵

حريتي

إنه النضال من اجل الحرية، وهدير الغضب يزلزل الأفاق، انها الحرية التي ينشدها كل حي، حتى النهر ينفلت نحو الحرية رافضا القيود؛ فالحرية ترجمت فضيلة الالتزام في الشعر الحديث ، بأبعادها السياسية والاجتماعية والنفسية، بالإضافة إلى ما حملته من رؤى فنية جعلتها منطلقا للحدائث الأدبية المعاصرة؛ وكرست بالتالي فلتة الانعتاق والتماهي مع قضايا التحرر في العالم.

ثالثاً/ رمزية الأنا والآخر في الشعرية العربية الحديثة:

عرفت الساحة الأدبية العربية متغيرات لازمت البيئة المحيطة لها، انطلاقاً من الناحية السياسية بصفة خاصة، ذلك أنّ الفرد العربي أخذ زمام الحداثة والانفتاح بداية من الحملة النابليونية على مصر، وما عرفته من توجهات مسّت الناحية الفكرية وجعلت من الأنا المفكرة وسيلة للبحث والإبداع.

وفيما يخصّ الناحية الأدبية كانت المادة الشعرية نموذجاً من نماذج هذه العصرنة التي حوّلت نطاق الشعر من الرتبة التقليدية المتوارثة، إلى الصورة الحسية التأملية المواكبة لعملية الانفتاح الحضاري، والموسومة بنبذة الأنا الموحية المعيرة، لما يلوج في القلب من مباحث إنسانية، شغلت مجموع رواد الاتجاه الرومانسي الحساس المتأمل في الطبيعة، الراسم بالخيال، الكاتب بلغة مرهفة ناعمة، فعكس طبيعة المبتغى والشعور الذاتي الصادق: "فالشعر الوجداني شعر من النفس إلى النفس، فهو إذن من أصدق الشعر، فالشاعر يتحدث مع نفسه ويخاطبها ويبوح إليها بإحساساته ولواعجه، والشعر الوجداني يخص الذات بالعواطف ولذلك هو شعر غنائي"²⁶. واتخذت الرومانسية من الشعر وسيلة للتعبير عن الذات، وما يكتنفها من ألم وشقاء وتشاؤم، ولم تقيد الرومانسية نفسها بأصول أو مبادئ فنية، كما حدث مثلاً في نظيرتها الكلاسيكية؛ بل إنَّها بلورت الطرائق واستحدثت الخرجات حسب مقتضى الذات والمضمون، وهذا لتحقيق عملية الترابط بين "أنا" القائل و"المحيط" المؤثر فيها يقول إيليا أبو ماضي:

أنا من أنا يا تُرى في الوجود	وما هو شأني وما موضعي
أنا قطرة لمعت في الضحى	قليلاً على ضفة المشرق
سيأتي عليها المساء فتغدو	كأن لم ترق ولم تلمع
أنا نعمة وقعتها الحياة	لمن قد يعي ولن لا يعي ²⁷

يتماهى إيليا أبو ماضي مع الحرية في بعدها الانطولوجي، أين تتجلى الأنوية مرتبطة بالكينونة وبالوجود الإنساني، كونها المسبب الأول لعملية النظم والتعبير فالخير والحق والجمال، معايير شغلت بالروح الشاعرة في إطار إنساني هادف يسمو إلى تحقيق المطلقية الخلقية، بعيداً عن (الاغتراب الاجتماعي) "المؤثر سلباً على المجتمع والذات الفاعلة فيه، ونعني بذلك تعرض الشخص إلى التهميش والعزل والإقصاء الدافع لقطع أواصر الشراكة والتواصل مع الغير، فينكفى على نفسه وينطوي على ذاته،

ويشعر بالفردية السلبية، المنتجة لمجموع التوترات النفسية الحادة²⁸ التي شوّهت صورة الأنا في ظل الاجتهاد الرومانسي الفني .

ومن منظور آخر نجد بأنّ الذات الرومانسية قد حاولت التعبير عن الملامح الاجتماعية في ظل الشواهد والمتأتيات المؤثرة فيها؛ يقول ميخائيل نعيمة:

أخي إن ضجّ بعد الحرب غربيّ بأعماله.

وقدّس ذكراً من ماتوا وعظّم بطشاً أبطاله.

فلا تهزج لمن ساووا ولا تشمت بمن دانا.

بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام.

لنبيك حظاً موتانا.²⁹

بعد نكسة 1967، عمت الفجيعة الأمة العربية التي استيقظت على أوهام الأمجاد التليدة، ولا نبالغ اذا قلنا أن فجيعة الشعراء كانت أعظم ، فجاءت أشعارهم حاملة للهم العربي، تلفها بنية شعرية عمقتها الأخوة الاجتماعية الخاضعة لمقياس المساواة بمنظور النزعة التأملية "التشاؤمية" المنتجة لحالة (اليأس الصارخ دون جدوى). يقول ميخائيل نعيمة:

فلا تندب، فأذنُ الغير لا تُصغي لشكوانا.

بل اتبغني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول.

نوارى فيه موتانا.³⁰

فقد تحولت القصيدة إلى رسالة اجتماعية في قالب ذاتي حساس، مهتم بموضوعات الحياة ومصير الإنسان، اعتماداً على اللغة الإيحائية العميقة المعنى، والمستوحاة من الطبيعة الخلافة المطابقة للروح المرهفة الغناء :

واجعل اللهم قلبي

واحة تسقي القريب

والغريب

ماؤها الإيمان، أما غرسها

فالرجا والحب والصبر الطويل

جوها الإخلاص، أما شمسها

فالوفا والصدق والحلم الجميل.³¹

فالعطاء هنا جاء في صورة تركيبية دلالية، جمعت بين الأنا الراغبة، والآخر المتعطش للجمالية الفعلية من خلال إيراد الإيحاء الطبيعي، المعبر عن التشبع الرومانسي والعاطفة الإنسانية الهادفة، التي تجعل من أدب هذه المدرسة رسالة مقدسة مردها الذات واهتماماتها الداخلية النفسية، في حين أنّها تُحاول أيضا التطلع إلى محيط الآخر وما يحويه، من مشاغل واضطرابات وسلوكيات تترجم تلاحم النسق بين أفراد هذا الوسط الفعال.

وتجاوزا للرومانسية جاءت الصورة الواقعية كمرآة فعلية على انغماس الذات في ألحان نفسياتها، محاولة -أي الواقعية- إخراج هذه الأنا إلى محيط الواقع المعاش - الأنا والآخر- قصد تحقيق الغايات والتقرب من المآرب والانشغال بمتطلبات المجتمع يقول ماركس: " ليس وعي الناس هو الذي يُحدّد وجودهم، بل على العكس من ذلك إنّ وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدّد وعيهم"³².

ولعلّ أبرز انشغالات أدباء هذه الحركة الفنية الواقعية، هي تلك المتغيرات السياسية الطارئة في المجتمع العربي في إطار النزعة الوطنية والقومية التحريرية؛ يقول نزار قباني:

لن تجعلوا من شعبنا

شعبَ هُنودٍ حُمَر

فتحن باقون هنا..

في هذه الأرض التي تلبسُ في معصمها

إسواره من زهر..

فهذه بلادنا

فيها وُجدنا منذ فجر العمر.

فيها لعبنا.. وعشقنا..

وكتبتنا الشّعْر..³³

فهذه النبيرة التعبيرية جاءت بلسان جماعي مُريدٍ لمبتغى سياسي رافض للعقلية الاستعمارية المستبدة. وتمتد هذه الصرخة الجماعية المقاومة، قصد الحفاظ على مقومات "الأنا" في ظل "الآخر الصامد"؛ يقول محمود درويش:

صرنا أقلّ ذكاءً

لأنّنا نُحمَلِق في ساعة النصر.

لا ليل في ليلنا المتلألئ بالمدفعية.

أعداؤنا يسهرون

وأعداؤنا يُشعلون لنا النور

في حلقة الأقبية.

هنا، بعد أشعار "أيوب" لم ننتظر أحدا..

هنا، لا "أنا"

هنا يتذكر "آدم" صلصاله.³⁴

فـ "أنا" الجماعة، أساس ومقوم للعملية الأدبية الواقعية، كونها الركن الأساسي، المترتب عنه قانون الالتزام، المتزامن والعملية العلاجية لهذه الاضطرابات المصورة للمجتمع، وكأنه فرد يضحك ويبكي، يفرح ويحزن يصرخ ويصمت؛

نم يا صلاح الدين

نم..تتدلى فوق قبرك الورود.

كالمظليين.

ونحن ساهرون في نافذة الحنين.

نُقشّر التفاح بالسكين.

ونسأل الله "القروض الحسنة".

فاتحة

أمين.³⁵

فالمقصود من رمزية "صلاح الدين"، هي صورة المجتمع العربي إبان القوة وزمن التحكم في زمام الأمور بعيدا عن روح الخضوع والتبعية التي تأتت من ورائها، انتهاكات مسّت الجانب الاجتماعي أكثر فأكثر، يقول أدونيس:

فراغ زمان بلادي فراغ

وتلك المقاهي،

وتلك الملاهي،

فراغ.

وهذا الذي ذلّ في أرضه،

وأنكرها واستكانا،

ورصّع بالعار تاريخه،

ولوث أنهارنا ورُبّانا،

36
فراغ.

فجاءت هذه القصيدة من باب الإصلاح الاجتماعي، المُعبَّر عنه في صورة رمزية، صوّرتُ
"أنا" المجتمع في قالب حسي متداول؛ يقول صلاح عبد الصبور:

يا صاحبي، إني حزِينُ
وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزقَ المتاح
وغمست في ماء القناعة خُبزاً يأمي الكفاف
ورجعت بعد الظهرِ في جيبي قُروش
فشربت شايا في الطريق
ولعبت بالتردِّ المورِّع بين كفي والصديق
وضججتُ من أسطورة حمقاء ردَّدها الصديق.³⁷

ومن هنا يمكن القول أن أدبية الالتزام تدخل في بناء المجتمع وفق كل الأبعاد
والأيديولوجيات المتحكمة في زمانه، إن كان من باب السببية الخارجية سياسياً
أو تلك المؤثرات الداخلية اجتماعياً، والتي تتمازج كلها في قالب إنساني، يستأنس له
الأديب المفكر بالخضوع والطواعية والانقياد الخادم للبنية الاجتماعية الهادفة
فتحصل عملية الصراع بين الأنا والآخر قصد تحقيق المثالية المطلقة والصورة
النموذجية المقصودة حقاً.

وفي الختام لنا أن نقول أن:

- ✓ مصطلح الالتزام قديم حديث، ذلك أنه جاء بصيغ تماثلي والعملية الفنية
الصادرة من الأديب وبواعث أدبه.
- ✓ الالتزام ظاهرة فنية جاءت بصيغة واقعية اجتماعية، تُمَثِّل الحاضر وترسم
خطوط المستقبل للأجيال القادمة.
- ✓ الأديب في مفهوم الالتزام هو: إنسان يعيش ضمن مجموعة من البشر،
يتبادل معهم التأثير والتأثير، ويشاركهم الهموم والتطلعات.
- ✓ "أنا" الالتزام تعيش في إطار الحرية المسؤولة، التي تجعل الكرامة الإنسانية
هدفها الأول؛ كون الشاعر العربي المعاصر مُدرك لأهمية المسؤولية التي تقع
على عاتقه، ومؤمن بخطورة المرحلة والظروف التي يمر بها العالم.
- ✓ الروح الوطنية والقومية غذاء للذات المُلتزمة والمؤمنة بحق الفرد في المجتمع
وحق المجتمع في الحياة، حيث استفاق الأديب على واقعه المهين، بعد الحرب
العالمية الثانية، أين وجد نفسه قد أُنْهَكَتْ الأحداث السياسية والظروف

الاجتماعية، محاولا التطلع من خلالها نحو الغد الأفضل، واعتمادا منه على خاصية الالتزام.

وهي نتائج تستوجب وقفة علمية وأدبية، لتفحص قضية الالتزام، والتعمق فيها بالدراسة والتحليل والإحصاء، لما لهذه القضية من أهمية في تكوين شخصية الفرد العربي المعاصر، الطامح للتقدم والرقي ومواكبة سير عجلة التحضر بمقاييسها السياسية والاجتماعية والثقافية الفنية.

¹- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1، 1997م، المجلد الخامس، ص 494-495.

²- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ترتيب وتوثيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص 1173-1174.

³- ابن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط1، 1412هـ-1992م، ص 564.
* سورة الفرقان، الآية 77.

⁴- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، قدّم له: فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل-فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين، اعتنى به تحقيقا ومقابلة: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، ط1، 1426هـ-2005م، ص 598.

** سورة الإسراء، الآية 13.

⁵- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 454.

⁶- رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1988، ص 52.

⁷- مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مطبعة دار القلم، بيروت، ط1، 1974، ص 79.

⁸- أحمد أبو حاققة، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1994م، ص 12-14.

⁹- خفاجي عبد المنعم وآخرون: الأدب الإسلامي، المفهوم والقضية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م، ص 29.

¹⁰- وليد قصاب: في الأدب الإسلامي، دار القلم، دبي، ط1، 1419هـ، ص 87.

¹¹- محمد غيني هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، 1987م، ص 407-408.

¹²- عائشة عبد الرحمن: قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص 229.

¹³- عدنان علي رضا النحوي: الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، دار النحوي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، 1407هـ-1987م، ص 119.

¹⁴- محمود تيمور: الأدب الهادف، مكتبة الآداب ومطبعها بالجماميز، المطبعة النموذجية، 1959م، ص 51.

¹⁵- أحمد أبو حاققة: الالتزام في الشعر العربي، ص 14.

¹⁶- شوقي ضيف: البحث الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ص 101.

¹⁷- إبراهيم الحاوي، حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 161.

- 18 - ينظر، نجيب الكيلاني: الإنسانية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ-1987، ص 13.
- 19 - أحمد أبو حاققة، الالتزام في الشعر العربي، ص 63.
- 20 - الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر بن شداد، تقديم: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992، ص126.
- 21 - محمد أحمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ-2005م، ص 15.
- 22 - أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4، ج2، ص 58.
- 23 - سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط6، 1410هـ-1990م، ص 31.
- 24 - توفيق الحكيم، أدب الحياة، بتصرف، مكتبة الآداب، القاهرة، ص 74.
- 25 - فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 / 1993، 427.
- 26 - إقبال العرفج، الرومانسية في الشعر السعودي الحديث، النادي الأدبي بالأحساء، ط1، 1430هـ-2009م، ص 24.
- 27 - إيليا أبو ماضي: الخمائل، دار العلم للملايين، 1987م، ص 388.
- 28 - الهادي محمد بوطارن: الاغتراب في الشعر العربي الرومانسي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1432هـ-2010م، ص 200.(بتصرف)
- 29 - ميخائل نعيمة: همس الجفون، نوفل بيروت، لبنان، ط6، 2004م، ص 12.
- 30 - المصدر نفسه، ص 13.
- 31 - المصدر نفسه، ص 36.
- 32 - أحمد أبو حاققة: الالتزام في الشعر العربي، ص 29.
- 33 - نزار قباني: الأعمال السياسية الكاملة، منشورات نزار قباني بيروت، ج3، ص 165.
- 34 - محمود درويش: حالة حصار، كتب رياض الرايس، بيروت، لبنان، ط1، افريل 2002م، ص 11.
- 35 - أمل دنقل: قصيدة خطاب غير تاريخي، تمت الزيارة يوم: 2018/11/01، متوفر على العنوان:
<http://www.adab.com/modules.php>
- 36 - أدونيس: ديوان قصائد أولى، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص 69.
- 37 - صلاح عبد الصبور: الأعمال الكاملة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج.م.ع، دط/ 1991، ص 290.